«كانت مخالب الليل قد خلت أسطحة المعسكر، فأخذت السماء ترتفع ببطء كأنها نسر ثقيل في لحظات انطلاقه»(٤٥).

ذاك هو المشهد الخارجي للمخيم كما ترسمه «ما تبقى لكم» عبر آليات انبثاقه التي توخّاها السرد الروائي فيها، ويستطيع القارىء، في ضوء ما سبق، أن يتأمل في المقتبسات وقد حازت على سياق جديد، عبر تتابعها الخطي، الذي لم نغفل، أثناء إقامته، العلاقات الترابطية التي حكمت أي من الاشارات الواردة في السياق الأصلي، ويستطيع القارىء ان يعيد عطف ملاحظاتنا السريعة التي أعقبت تلك المقتبسات، على بعضها البعض، ومن خلال كلتا الخطوتين، يستطيع القارىء، ان يكوّن تصوراً، ينبثق من هذه الاشارات الحسية ـ اللغوية المتتالية، للمشهد الخارجي الكلي للمخيم، وأن يرى الى آليات انبثاقه، والرؤى والحالات التي تحكمها، والى تضافر عناصره الجزئية المكوّنة لبنيته الكليّة، والى تفاعل هذه العناصر، وغيرها، في سياق السرد الروائي لخلق حركية الدلالة وانفجار المدلولات.

ويبدو لافتاً، في البدء، ان الرواية: «ما تبقى لكم» في تسميتها لهذا المكان قد استبدلت المعسكر بالمخيم، ونكاد لا نعثر على الاسم الاخير على امتداد النص، بينما لا نجد حضوراً للاسم الاول «المعسكر» في الروايات الاخرى، وبخاصة «رجال في الشمس» و«أم سعد» اللتين تسميان هذا المكان بـ «المخيم»، فهل ثمة مغزى يمكن لهذه المفارقة ان تنطوي عليه؟ وهل يمكن للمعنى التوقيفي الاصطلاحي المتباين بين كلا الاسمين(٤٦) أن يتدخل في تحديد مغزى هذه المفارقة؟ وهل يمكن للايحاءات المتباينة التي تنبثق من كلا الاسمين أن تساهم في العثور على مغزى هذه المفارقة؟

هي أسئلة، قد تحتاج الاجابة عنها الى دراسة مستقلة تتناول العلاقة بين أماكن اللجوء، وتسمياتها المختلفة، وتحاول تفسير استمرار تسميتها: معسكرات أو مخيمات، مع تغير مكوّناتها الطوبوغرافية، وتحولها في كثير من الأحيان والبلدان الى بلدات ومدائن! غير ان ما يعنينا، في إطار دراستنا هذه، هو العثور على مصدر هذه المفارقة ومغزاها، وذلك في سياق اعتقادنا أنّ تسمية الشيء الذي هو موضوع للتأمل أو الاكتشاف المعرفي، هي، في ذاتها، قبض على جوهر ماهيته، وذلك لأن التسمية لاحقة للمعرفة، وليس العكس؛ وبهذا المعنى لا تكون المفارقة السابقة بلا دلالة، ولكن دلالتها التي يمكن العثور عليها تظل، حتى انجاز الدراسة المشار اليها، احتمالية، ترجيحية، ونحن اذا ما عدنا الى الواقع، كمرجعية للنص، نجد أن أماكن تجمعات اللاجئين في غزة قد سميت «معسكرات» بينما سميت مثيلاتها في الضفة الفلسطينية ودول الطوق «مخيمات»، ونحن لا نملك تفسيراً محدداً لهذه المفارقة، التي هي مصدر المفارقة الحاصلة في الروايات؛ فالرواية التي تحكي عن مكان لتجمع اللاجئين في غزة، تسميه «معسكراً»، وتلك التي تحكي عن مثيله في غير غزة تسميه «مخيماً»، وهذا يعني أن غسان يستخدم التسميات الدارجة دون أن يكبح حريتها في بثّ ايحاءاتها الخاصة.

ومهما يكن من أمر، فإن أياً من الاسمين، سواء انطوى على فكرة «العسكرة» أو «التخييم»، يدل على المكان المتعيّن الذي يحتوي اللاجئين في منفاهم داخل الوطن وخارجه في آن معاً: إنه المكان الذي يجسد فكرة المنفى، واقعاً بامتياز.

ولا شك أن هذه الدلالة الكلية تتشكّل من تفاعل المدلولات الجزئية لمكونات المخيم وعناصره المكانية، وهي المدلولات التي تشير، باستمرار، الى طارئية تشكل هذا المكان، وإلى غياب أية مقوّمات تجعل منه بنية فاعلة في إطار بنية اجتماعية أوسع، إنه المكان المتاهة، وليس هو المكان المجتمع،